٢ ـ التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

أظهرت فى المقال السابق الوجوه التى تربط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، وعددت كثيراً من التأملات التاريخية التى قد يكون لها اتصال كبير أو صغير بالحالات الجديدة التى تكتنفنا ، غير أن الاقتصار على تعديد وجوه الارتباط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، والقول بأن التعليم يجب أن يتجه اتجاهاً اجتماعيا ، أمر يجب أن يمزز باظهار المخاطر الشديدة التى يتعرض اليها كياننا الاجتماعى من جراء الفصل بين سياسة التعليم ، وبين ملابساتها الاجتماعية

ولقد ظهر فى العهد الأخير أن القائمين بأمر التعليم قد اضطروا فى مواقف عديدة أن يتجهوا إلى معالجة بعض الأمور علاجاً قائماً بعض الشىء على طبيعة الحالات الاجتماعية . وإنى لآسف إذ أقول إنهم لم ينجحوا فيما قصدوا إليه . وليس السبب براجع إلى قصور منهم ، أو تقصير عن أداء واجباتهم كاملة ، وإنما يرجع فى الحقيقة إلى أن سياسة التعليم الحاضرة لا تواتيهم بكل الأسباب الضرورية التى تمكنهم من تنفيذ برامج تتفق وما تتطلب الحالة الاجتماعية من صنوف العلاج . ولا أريد أن أعدد هنا حالات بذاتها ، وإنما أريد أن أبحث فى مجمل الظواهر التى تترتب على الفصل بين سياسة التعليم والملابسات الاجتماعية ، قدر ما تتيح لى تجاربى القليلة

* * *

كتب الفيلسوف هربرت سبنسر فى أواخر القرن الفارط مقالاً عنوانه « الكائن الاجتماعى » شبه فيه بنية الاجتماع الانسانى بكائن متعضن ، وأخذ يقيس الظواهر المتقابلة فيهما ويوازن بين حالات خاصة فى جسم الفرد وجسم المجتمع . ولا شك فى أن هذا الفيلسوف الكبير قد غفل عن أمر ذى بال جعل بحثه هذا محتاجاً الى كثير من التحوير ، بل لا نبالغ إذا قلنا إن غفلته عن ذلك الأمر قد أثرت فى النتائج التى حاول الوصول اليها فجاءت مفككة غير موصولة ولا مؤدية إلى فكرة محدودة ينتهى إليها البحث . ذلك بأن بين الحى والكائن الاجتماعى فروقاً رئيسية تميز بينهما تمييزاً لا يقف عند حد الظواهر ، وإنما يتعدى إلى التكوين الوظيفى فيهما . وقد يعلم الذين يدرسون علم الأحياء أن الحى يتكون من خلايا دقيقة هى وحدات بسيطة التركيب تحتوى على نواة هى سر الحياة فيها . ولكن اجتماع هذه الوحدات البسيطة التركيب ينتج حياً عويص التركيب معقد التكوين جهد ما نتخيل . ذلك فى حين أن الكائن الاجتماعى إنما هو كل بسيط التكوين يتركب من وحدات غاية فى التعقيد وعلى معرفتك هذا الفرق الوظيفى ، يتوقف وصولك إلى النتائج الصحيحة . فالخلايا لا قوام لها ولا حياة بغير اندماجها فى بنيان الكل الحى . أما الوحدات (الذوات العاقلة) التى يتركب منها الكائن الاجتماعى ، فكلما كانت أكثر استقلالا عن ذلك الكائن برز أثرها وتميزت وظيفتها واستبانت قيمتها ورجل فرعها وأصبحت قوة قادرة على التأثير فى الكائن الاجتماعى بما يحفظ عليه حياته الاجتماعية ويحركه نحو الرقى الاجتماعى ويبث فيه روح التطلع إلى الارتقاء المدنى ، وبالجملة على جعله كائناً اجتماعياً ممتازاً بأثره المعلى فى الحياة ذلك على الضد مما لو اندمجت هذه الوحدات العاقلة فى بنية الكائن الاجتماعى . فانها إذ ذاك تفقد استقلالها وقوتها على التأثير بالعمل على رقى الجماعة ، لأن اندماجها هذا إنما يسلبها القدرة على التفكير والتأمل فى حقائق الأشياء ، ويفقدها أخلاقها الشخصية ، وبوجه عام يدمجها فيما يسميه الاجتماعيون « عقلية الجماهير »

هذه حقيقة أولية ، على ما فيها من تعقيد وحاجة إلى الفهم ، من الضرورى أن نعيها وأن نجعلها نصب أعيننا كلما فكرنا فى وظيفة التعليم باعتباره عاملاً من عوامل استقرار الحالات الاجتماعية فى كل أمة من الأمم . أما وقد وعيناها فانا نتساءل : أيبغى التعليم عندنا باخراج رجال فيهم من الاستقلال الخلقى والعلمى ما يجعلهم فى المستقبل قوى مؤثرة فى الكائن الاجتماعى ، أم على العكس من ذلك يخرج رجالاً قُسّماً يكتفون من الحياة بالاندماج فى جسم الكائن الاجتماعى ، فيظلون طوال أعمارهم مغمورين

عقلية الجماهير ؟ وإنى لآسف إذ أقول إن تعليمنا بعيد عن أن يخرج رجالاً مستقلين على النمط الذى تتطلبه طبيعة الحالات الاجتماعية الجديدة التى أخذت تشعرنا بأننا مقدمون على انقلابات فكرية خطيرة .

إذن فواجب التعليم ينبغى أن ينحصر فى إخراج رجال مستقلين بعيدين عن التأثر بروح الجماهير . وتكوين استقلال الفرد يجب أن يكون بداءة التعليم ونهايته . أما العمل على شحن العقول بشتى المعلومات العلمية وتكوين ملكات خاصة فى الأدب والفن ، فلن يكون لها من أثر فى الحياة ، ولن تقوم من عوج الكائن الاجتماعى مالم يسبقها الاستقلال الذاتى وتدريب الملكات الخاصة على مماشاة ما تتطلبه مقتضيات ذلك الاستقلال

ولقد أظهرنا فى المقال السابق أن ابن الفلاح أكثر استقلالا من الناحية العملية من المتعلم الذى فقد استقلاله الذاتى بحكم الظروف التى نشأ محاطاً بها . غير أن استقلال الفلاح العامل استقلال ناقص ، إذ هو استقلال أشبه بالاستقلال الحيوانى منه بالاستقلال الانسانى ، ذلك بأن عدته فى هذا الاستقلال تقوم على قوة عضلاته وعلى صبره واحتماله ورضاه بمحيطه الذى يعيش مكتفياً به . وعامة ذا ليس فيه شىء من مؤهلات الاستقلال الانسانى ، وإنما هو استقلال يشارك فيه الفلاح كثيراً من الحيوانات . وعلى ذلك نجد أن ما عندنا من مكملات الاستقلال الفردى عند الفلاح تنقصه الناحية الثقافية التى تمكنه من أن يصبح ذا أثر عملى فى تكييف حالات الكائن الاجتماعى . ولكن هذا الاستقلال مهما كان فيه من ضروب النقص فهو استقلال على كل حال . أما المتعلم المتعطل فحالته تناقض هذه الحال . فان تعليمه لم يمكنه من أن يكون مستقلا من ناحية الثقافة ، فى حين أن نشأته ومحيطه قد سلباه ناحية الاستقلال الأخرى

أما الأسلوب الذى يجب أن ينتحى فى التعليم حتى يكون أداة صالحة لتخريج رجال مستقلين ذوى أثر فى تكييف حالات الكائن الاجتماعى ، فسنفرد له بحثاً خاصاً . وسنقصر كلامنا الآن على المخاطر التى يتعرض لها كياننا الاجتماعى من وجود فلاحين استقلوا حيوانياً ، ومتعلمين فقدوا كل ضروب الاستقلال

على الرغم من أن الأخطار التى يتعرض لها مجتمع تتناحرت عليه كل هذه الظواهر كثيرة متعددة ، فان أعظم هذه الأخطار وأشدها أثراً فى مستقبله ، إنما ينحصر فى حدوث ما يدعوه الاجتماعيون « التطفل الاجتماعى » . والتطفل الاجتماعى حالة ترهن فيها طبقات غير عاملة طبقات عاملة بمطلوبات حياتها . ولهذا التطفل مظاهر عديدة أخبثها أن تكون الطبقة المتطفلة هى بذاتها صاحبة السلطة العليا فى المجتمع ، كما حدث فى أوروبا فى خلال القرون الوسطى ، وكما هى الحال فى كثير من ممالك الشرق فى حالته الحاضرة . والويل لمجتمع تسود فيه هذه الحال

* * *

التطفل حالة طبيعية لاسبيل إلى نكرانها . فهنالك حيوانات تتطفل على نباتات ، ونباتات تتطفل على حيوانات . وقد يتطفل حيوان على حيوان ، أو نبات على نبات . فهو ظاهرة تكاد تشتمل كل نواحى العالم الحى ، وتتحكم فى الكثير من مظاهره الجلى . غير أن نظرة واحدة فى هذه الحقيقة الطبيعية تظهرك على أن التطفل حيثما كان وأنى كانت وسائله ومظاهره ، لن ينتج إلا هدماً فى الحياة ، ولن يبرز إلا فسادا ، ولن يؤدى إلا إلى إرهاق شامل فى القوى الحيوية تختلف درجاته ومظاهره ونتائجه باختلاف الظروف . وقلما يستطيع عالم طبيعى أن يخص تلك الظروف التى يتجلى فيها فعل التطفل فى عالم الأحياء ، فان ذلك من الأشياء التى يستعصى على العلم تحديد مظاهرها عامة وخاصة ، وفعل كل متطفل فى مختلف الظروف ، على كل متطفل عليه فى متباين الحالات . وإنما يستطيع الاحيائى أن يدرس ظواهر التطفل فى حالات يقف عليها ، وأن يدرس أثر الحى المتطفل فى بنية الحى المتطفل عليه ، محصياً فى كثير من الحالات أوجه العلاقة بينهما وتأثير دورة حياة الحى المتطفل فى حاضنه

ولن يعدو العالم الاجتماعى هذه الحال عينها . فليس فى مستطاعه أن يحصى أوجه التطفل الاجتماعى فى مجتمع بعينه ، ولا يدرس الحالات درس توفر على دقائقها وتدرجاتها التى تكفل له الوصول الى نتائج مقطوع بصحتها قطعاً تاماً . والعالم الاجتماعى أضعف وسائل من العالم الطبيعى . فان هذا بين جدران معمله ، يستطيع أن يحصر الحالات ويحدد الظواهر ، فى حين أن زميله الاجتماعى إنما يتأمل من حالات عامة غير محصورة ولا محددة

تحديداً يجعل الحكم القاطع على أصولها وظواهرها أمراً سهلا هيناً . غير أن هذا كله لن يحول بين الباحث الاجتماعي وبين تبين الحالات الكلية التي يتخذ درس مظاهر التطفل الاجتماعي وسيلة إلى اكتناهها .

من الحالات الكلية في التطفل الاجتماعي ، بل ومن أظهر تلك الحالات أثراً في الجماعات الحديثة عامة ، وفي مصر خاصة ، تسلط غير ذوي الكفايات ، وإن شئت فقل المتعطلين ، على موارد ما تنتج الأيدي العاملة من ناحية ، وعلى إنتاجها نفسه من ناحية أخرى ، من غير أن يكون لهؤلاء المستغلين أي ضلع في تكوين المورد أو في الانتاج . من هنا تحدث حالة من حالات التطفل الاجتماعي تستنفد فيها أيد متعطلة ثمرات الجهود التي تبذلها أيد عاملة ، بغير أن تنال الأيدي العاملة من ثمرات جهودها ما يكفي لحفظ حيويتها أو قدرتها على العمل والانتاج . فان من شأن المتطفل أن يجتهد في استغلال خاصته بكل صور الاستغلال ، وأن يبلغ من الانتفاع بحيويته جهد ما يستطيع ، وكلما قلت قوى المقاومة في الخاضن ازداد المتطفل شرة وبأساً ، حتى ينتهي الأمر بحدوث ما يسميه الاجتماعيون « بالتنكس الاجتماعي » وهي حالة تتساوى فيها طبقات المجتمع لا من حيث الكفايات العليا ولكن من حيث العجز عن العمل المنتج . وما لهذا الأمر من نتيجة إلا الفوضى القاصرة ، ولا ينكر أحد أن في مجتمعنا هذه الظاهرة الخبيثة . فالأيدي العاملة لا تنال من منتوج عملها ما يكفي للاحتفاظ بحيويتها ، والأيدي المتعطلة تبدد ثمرات تلك الجهود . وعلم ما يترتب على ذلك عند الله .

ومن تلك الحالات هجر الريف والعيش في المدن . ولقد بحث هذه الظاهرة كثير من الكتاب منهم : أدمون ديمولاند الفرنسي ، والأستاذ استن فريمان الأنجليزي ، في بحوث مستفيضة عالجوا فيها الحالات التي نشأت في فرنسا وانجلترا وعطفوا بعض الشيء على حالات نشأت في غيرها من بلدان أوربا . ولا جرم أن هذه الحالات تتشابه . فالأسباب التي تدعو الفرنسي أو الأنجليزي إلى هجر الريف والاقامة في المدن ، أو بالأحرى حب التحضر (بمعنى المعيشة في الحواضر) تكاد تكون نفس الأسباب التي تحمل المصري على أن يفعل ذلك . غير أن النتائج تختلف باختلاف البلدان على مقتضى ما في كل شعب من الاستعداد والصفات وفي الأكثر على مقتضى الثقافة التقليدية التي يختص بها كل شعب من الشعوب

ولسوف نبين في مقال آت فكرتنا في أثر الثقافة التقليدية في الكيان الاجتماعي بكل أمة من الأمم . ونكتفي الآن بأن نقول إن شعبا كالشعب المصري الزراعة ثقافته التقليدية منذ أبعد عصور التاريخ ، لابد من أن يتأثر بزيادة الميل إلى التحضر تأثراً عظيما لا يحسه شعب آخر ثقافته التقليدية غير زراعية بل على الضد من ذلك أعتقد أن الشعوب التي تكون ثقافتها التقليدية صناعية أو تجارية ، يجب أن تحتمي بحياة التحضر صيانة لمصالحها العامة . أما تحضر شعب ثقافته التقليدية الزراعة فتلك هي الطامة الكبرى على كيانه الاجتماعي ؛ وتلك هي الطفرة العظيمة إلى أبشع صور التطفل الاجتماعي

ونحن نعلم علم اليقين بأن مدننا المصرية مدن غير صناعية بالمعنى المفهوم من ذلك في أوربا . بل أعتقد وأظن أنني أعتقد بحق ، أن مدننا ليست إلا أسواقاً تستهلك فيها منتوجات الريف ؛ وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تظهرنا على أن ميلنا إلى التحضر ، مع التعطل عن العمل يرهق المنتج ويرهق السوق المستهلكة ؛ لأن التعطل في الواقع عبء على الجمعية ؛ ذلك بأنه قوة مستنفدة لا قوة منتجة من ناحية ، ولأن الحاجات التي يستنفدها لا ينتج ما يقابلها لصالح الجمعية من ناحية أخرى . وبذلك يصبح المتعطل عبئاً على الحاضرة التي يسكنها ، وعبئاً على العناصر المنتجة معاً . وهنا يتضاعف تطفله ، إذ يصبح متطفلاً باعتبارين : الأول أنه يزاحم أهل المدن ويشاركهم أرزاقهم من غير إنتاج من ناحية ، والثاني أنه يرهق العناصر العاملة في الريف بأن يستهلك ولا ينتج ، وبالأحرى بأن يأخذ ولا يعطي

ومن تلك الحالات ما يسميه الاجتماعيون « الجشع الاجتماعي » Pleonexia ؛ ولا أريد هنا أن أطنب في تعريف « الجشع الاجتماعي » ولا أن أناقش في مختلف التعاريف التي وضعها المؤلفون الذين أتيح لي الاطلاع على مؤلفاتهم ، وإنما اقتصر على ذكر حالات يستطيع القارىء أن يدرك منها ، مطبقة على حالات تقوم بين ظهرانينا ، ما يقصد بالجشع الاجتماعي

وعندى أن أخبث ما يؤدى إليه الجشع الاجتماعى من تكييف عقلية طبقات خاصة فى مجتمع ما بمقتضياته ، إنما ينحصر فى أن تطفل جماعات ، لا أفراد ، على جسم الكائن الاجتماعى . وقد تلبس الجماعات التى تنتابها سورة الجشع الاجتماعى صوراً مختلفة ، من اتحادات تجارية إلى اتحادات صناعية إلى جمعيات علمية أو اقتصادية أو سياسية ، تتخذ التأثير فى عقلية الجماهير بمختلف الوسائل طريقاً تسلكه إلى غرضها الذى ترمى إليه ، والذى يجعلها جديرة بأن تنعت بأنها جماعات مصابة بجنون الجشع الاجتماعى . أما ذلك الغرض فينحصر فى أن تنال من الجمعية أقصى ما يمكن أن تصل إليه من الربح المالى أو النفوذ أو السلطة أو الجاه أو الحكم بأقل جهد ممكن أن يبذل أو تضحية من ناحيتها

وفى مثل هذه الحالات تتضاعف خبائث التطفل الاجتماعى بأن يصير تطفلاً « مركباً » لا تطفلاً بسيطاً . ونعنى بالتطفل « المركب » أن هذه الجماعات المصابة بجنون الجشع الاجتماعى يكون فيها عنصر خاص يعيش متطفلاً على جسم الجماعة نفسها . ذلك العنصر هو عنصر انتهازى لن تسلم منه جماعة أصيبت بذلك المرض الخبيث . فكما أن الجماعة تتطفل على جسم المجتمع ، يتطفل ذلك العنصر الذى هو « واجب الوجود » فيها بمقتضى تكوينها النفسى ، على بقية عناصرها

وتسير قافلة المتطفلين ، ولكن إلى البوار الصرف . مثلها كمثل حيوانات زرعت على مادة هلامية فى زجاجة اختبار فى معمل من المعامل . فانها تتكاثر ثم تتكاثر ، حتى إذا ملىء فراغ الزجاجة واستحالت المادة الهلامية أجساماً حية انتكس الأمر وبدأت الأحياء تنحدر إلى الهلاك المحتوم

هذه إلمامات موجزة فى حالات نشاهدها قائمة من حولنا . فهل يمكن أن نتخذ التعليم أداة اصلاح نتقى بها بعض ما يكتنفنا من شرور وخبائث ؟ وهل يمكن للتعليم أن يؤدى إلى الأجيال المقبلة رسالة إصلاح عملى يرفع عن كاهلهم بعض ما نتوقع لهم من متاعب ؟ أظن أننا نستطيع أن نجيب بالايجاب ، وموعدنا البحوث الآتية

اسماعيل مظهر

ذكرى ساقيـــة !

للأستاذ على الطنطاوى

« ... ... كل ما فى الوجود يولد ويحيا ويموت :
ألا تمر بالدار ألف سنة فلا تلتفت اليها ، ولا تحس بها .
ثم ترى فيها انساناً يتصل قلبك بقلبه ، أو يمتلىء فؤادك بحبه ، فاذا هذه الدار « تولد » فى فكرك و « تنمو » وتزداد لهذا الانسان حباً ، فتزداد الدار عندك حياة ؟ ثم ينزع الحبيب عن الدار ، فاذا هى « تموت » وإذا أنت تألم لموتها ، وتبكى فيها ذكريات لك عزيزة ، وماضياً لك حلواً ؟ ثم تمحو الأيام هذه الذكر ، وتنسيك هذا الماضى ، فاذا الدار قد عادت إلى العدم ، كما بدأت من العدم ، وإذا أنت تمر بها من بعد ألف سنة ، فلا تلتفت اليها ، ولا تحس بها ؟ ... »

من مقالة لى قديمة « على »

هى ساقية صغيرة عرفتها من يوم عرفت الدنيا ، تجرى فى رحبة (الدحداح) ، فى ظاهر دمشق ، فكنت أزورها دائماً ، وأجلس اليها راضياً وساخطاً ، مسروراً ومكتئباً ، شجىّ النفس وخلىّ البال ، فأحدثها حديث سرورى ورضاى ، وأبثها شجوى واكتئابى ، فأجد فيها الصديق الوفىّ ، حين عزّ فى الناس الصديق ، والأخ المخلص حين ارتفع من الأرض الاخلاص ؛ وكنت أفرّ اليها كلما نابنى من الأيام نائبة ، أو نالنى الدهر بمكروه ، فأجد فيها عزائى وأنسى ، وراحة نفسى . . . فررت اليها أمس كما كنت أفرّ ، فاذا الأرض غير الأرض ، واذا الساقية قد عدا عليها الزمان فمحاها ، وأقام ذار البستانى على رفاتها . . . فجلست على حافتها الجافة ، أودّع هذه البقعة الحبيبة إلىّ ، قبل أن تبتلعها المدينة الضاجة الصاخبة التى ابتلعت ما كان حولها من حقول واسعة ، ورياض وجنات ، وأشيع حياة لى فى هذه الساقية كلها سعادة واطمئنان ، عشتها كما تعيش الضفادع ، غير أن الضفادع تسبح فى ماء الساقية ، وتنام على كتفها ، وأنا أسبح فى ذكرياتى التى أودعتها حافتيها ، وآمالى التى رأيتها من خلال أمواهها . . . وهل يعيش ابن آدم إلا فى الساقية والطريق ، والقمر والمئذنة ؟ أليس فى كلّ ساقية يجلس اليها ، وكل طريق يسلكها ، وفى القمر الذى يتأمل صفحته فى الليالى البيضاء ، والمئذنة التى يرى هلالها من شباك غرفته ، أليس فى كل ذلك

— أثر ... ن نفسه — وقطعة من حياته ؟ . .

* * *

رحمة لك أيتها الساقية . . . منذ كم أنت تجرين وتسرعين ، أفبلغت غايتك بعد جرى القرون ، أم قطعك عنها عدو جبار ، أم أدركك عجز الشيخوخة وضعف الهرم ، فجف ماء حياتك ، كما تجف الحياة فى عروق الشيخ القحم ، وفروع الشجرة النخرة ، وجدر البيت الخاوى ؟

وهل كنت تجرين يوماً واحداً لو عرفت أن غايتك الفناء وأنك إنما تسعين إلى أجلك برجلك ؟ وهل كان يبنى البانى ، ويزرع الزارع ، ويعمل العامل ، لو عرف أن أجله أدنى إليه من أمله ، فبينما هو ينتظر إشراق الفجر ، إذ احتوته ظلمة القبر ، وبينما هو يحلم بالسراب ، إذ واراه التراب ؟

وهل كان يطمع فى الحياة طامع لو عرف أن كل يوم يزيد من حياته إنما ينقص من حياته ، فاذا بلغ كمال الحياة فقد صار إلى الموت ؟

إن الانسان يأمل أن يملك الدنيا ويعيش إلى الأبد ، وأنت تأملين أن تصيرى نهراً ثم تصبحى بحراً ، والله يريد أن تتم حكمته فى الحياة فيسعى كل ساع إلى الفناء ، يدعوه الأجل ، ويحدوه الأمل . . . ولا رادّ لما أراده الله !

* * *

وهل كنت تذكرين أيتها الساقية أصدقاءك وأحباءك وتحنين إلى ذكراهم ، وتبكين عهدهم ؟ أم قد أمات حسك تقلب الأيام وغدر الزمان ، فأقبلت تجرين ، لا تذكرين ماضياً ولا تحفلين حاضراً ولا تنتظرين آتياً ؟

وهل تذكرين يوم فررنا اليك من شيخ الكتاب القاسى ، وعصاه الطويلة التى كان ينال بها رؤوسنا وهو على سرير ملكه ، فى هذه الغرفة الضيقة ، الثقيلة الجدران المسدودة النوافذ ، الفاسدة الهواء ؟ لقد مللنا البقاء فى هذا السجن الرهيب ، فشكونا إلى أهلينا فما وجدنا مشكياً فتجاوزنا (البحرة الدفاقة[1]) وتخطينا هذا السياج ، ولجأنا اليك فما وجدنا منك إلا الكرم والعطف والاحسان ؟ آمنت خوفنا ، وبدلتنا بمدرسة الشيخ وعصاه ، هذه الدنيا الفسيحة وهذه الحقول التى لا تنتهى ، فطابت أنفسنا بجمال الكون ، وانجلت أبصارنا بمرأى البساتين ، ونظرنا من هنا فاذا قبة النسر ومآذن الأموى تشرف علينا جليلة عظيمة ، فاستشعرنا جلال الدين وعظمته ، ونظرنا من هنا قاسيون يطل علينا مشمخراً عالياً ، تقوم عليه الدور البيـ والقصور الحمراء ، فأحسسنا جمال الدنيا ، وسموّ المجد ، و الغنى ... وأدركنا بعقولنا الصغيرة أن الشيخ كان على ضلا وأن أهلنا كانوا على خطأ ، وأن العلم قد يحصل فى الدنيا الواسـ والبقاع الجميلة ، أكثر مما يحصل فى السجون والكتاتيب وأن جمال الحقل ، أبلغ فى التهذيب من عصا الشيخ

فى تلك الساعة عرفتك أيتها الساقية ، فمنحتك والاخلاص ، وجعلتك صديقى إذ لم أجد فى بيتى ومدرستى صد وكنت أرى طيفك فى أحلامى ، فأهش لك وأنا غارق فى منا وأتخيل صفاءك وعطفك ، وأنا بين يدى الشيخ الجبار ، يـ رأسى بالعصا ، ويصرخ فى وجهى بصوته الأجش الخشن :

ـ يا ولد يا خبيث . . . والله إن عدت الى الهرب كسر ساقيك ، فلا أرد عليه ، وإنما أستر وجهى بكفى ، وأ بصوت غريب ، فيظننى أبكى ، فيدعنى ... وينصرف الى غيـ فأنظر من بين أصابعى ، حتى إذا رأيته قد غفل عنى قفز إلى الشارع ، فاختبأت فى (جامع التوبة) أو أخذت طر اليك ، فآكل من الثمار التى حولك ، وأشرب من مائك وأصافحك بيدىّ شاكراً ، وأمسح بكفيك وجهى . . . تذكرين ذلك أيتها الساقية ؟ . .

هل تذكرين كيف جئناك بعد ذلك ، وقد تخلصنا من الشيـ ودخلنا المدرسة ، فوجدنا ساحة رحبة ومعلمين كثيرين وحصصاً قصيرة ، ولكننا لم نجد عطفاً ولا ابتساماً ؟ كان مـ الحساب يحبب الينا شيخ الكتاب ، حتى نراه إلى جنبه نعيماً كنا نرى طيفه أمامنا حيثما سرنا بشاربيه الكبيرين ، وتقطيـ الدائم ، ونظاراته التى يحدرها أبداً إلى أرنبة أنفه ، وصو الذى يشبه صوت من يتكلم من وسط برميل ، فكـ نرتجف من خياله ، ونخشاه أبداً ، إلا إذا أصبحنا فى حماك فاننا نأمن ، ونطلق أنفسنا على سجيتها ، فنسخر من العلم ، ونقلد الشيخ ، ونمرح ونعدو ، ثم نعود إلى الدار ونحن ممتلئون قو ونشاطاً ، فاذا سألنا الأهل : أين كنتم ؟ قلنا : كنا فى المدرسة وإذا سألنا المعلم قلنا : كنا فى البيت ! فيصدقوننا جميعاً . . أوليسوا قد حملونا على الكذب حملا حين كرّهوا الينا العلم ، ودفعونا إلى الفرار ، وعاقبونا على الصدق ، ولم ينتبهوا إلى الكذب ؟

(١) كانت يومئذ آخر حدود الشام من جهة القنية

وهل تذكرين يوم جاءت دمشق أولُ سيارة ، وكنا جالسين
لك نتحدث حديث الحرب وما يمكن أن يصل الينا من
بارها ، فما راعنا إلا عربة غريبة الشكل ، تسير من غير أن
ها حصان ، فطار الفزع بألبابنا ، وفررنا نحسب أن الجن
برها ، ثم سمعناهم يدعوننا ، ورأينا ضباطاً تلمع الأوسمة على
ورهم والسيوف على جنوبهم ، فأمرونا أن نلقى الأحجار فيك
ا الساقية ليمر عليها « الأطنبيل » فأطعنا وفعلنا مكرهين ؟ ومن
ن يستطيع أن يخالف أمر ضابط من ضباط جمال باشا ؟ . . .
صرت هرعنا الى دورنا نخبر أهلنا أن عربة تمشى من غير
يجرها حصان ... فتنبرى لى عمتى ، وتكذبنى وتسبنى :

— اخرس يا كلب ، يا كذاب ... إن هذا مستحيل

ولكن عمتى التى أبت أن تصدق أن فى الدنيا سيارة تمشى
نسها ، قد عاشت حتى رأت الكهرباء .... والتلفون ....
لراديو .... ورأت الدبابة والمصفحة والمتراليوز ... ثم رأت أثر
لغارة فى أنقاض دمشق ... فصارت متهيئة لتصدق كل شىء !

وهل تذكرين كيف عدنا اليك أيتها الساقية فاذا أنت
ردة غضبى ، قد وقفت عن سيرك ، وضللت طريقك ،
تطلعت الى اليمين والشمال ، والأحجار قائمة تسد عليك سبيلك
لماجناك واعتذرنا اليك ، وطيبنا قلبك ، وفسحنا لك السبيل ،
فزيت مضطربة ، متغيرة الوجه ، تبكين أيامك الماضية ،
تخافين ما يأتى به الزمان ؟

وهل تذكرين يوم كنا حولك ونحن آمنون مطمئنون ، فاذا
الأرض قد ارتجت ، وإذا الجيش التركى الذى كنا نخافه ونخشاه
قد ذلّ بعد عزّ ، وضعف بعد قوة ، وفر متفرقاً حائراً لا يدرى
أين يقصد ، ومن ورائه العرب والانكليز ، يدخلون الشام
ظافرين ، فسررنا وفرحنا ، وصفقنا وهتفنا . ولكنك جريت
واجمة حزينة ، لأن حياتك الطويلة وما رأيت من دولة الدول ،
وهلاك الملوك ، علمتك أن من يؤمن لمن لم يتبع دينه ، كمن
يدخل النار ويرجو ألا تحرقه النار ؟ ثم حققت الأيام ظنك ،
وصدقت حدسك ، فقلنا : يا ليت ! « وهل تنفع شيئاً ليت ؟! »

وهل تذكرين يوم كنا جالسين اليك ، وحولنا هذه الحقول
تمتد آمنة الى ما لا يدركه البصر ، وإذا بعدو جبار ، يأتى من
وراء الحقول الآمنة ، فيشقها شقاً منكراً ، ويحفر فيها ثغرة هائلة
حتى إذا بلغك ألقى عليك نظرة ازدراء واحتقار ، ثم سار فى
طريقه حتى بلغ سفح الجبل ، فتمطى ثم تمدد ثم نام نومة الأبد ؛
وإن رأسه لفى الصالحية ، وإن رجليه لفى حىّ النصارى ... فلما
رآه أحبابك وأصحابك آثروه عليك ، فلم يعد أحد يستطيب
الجلوس إلى ساقية صغيرة ، بعد أن فتح (شارع بغداد) ليجول
فيه الشبان كل يوم (بين حى النصارى والصالحية) مرجلة
شعورهم ، مصقولة وجوههم ، يسيرون مائلين مميلين ... فصبرت
وتجلدت ، ورجعت تجرين كما كنت منذ ثلاثة آلاف سنة ....
كأنك لا تخافين شيئاً ؟

* * *

لقد عشت عزيزة مكرمة ، منذ وطئت هذه الأرض أول
مرة ، فلم ينتهك حرماتك أحد ، ولم يعبث فى حرمك الآمن
عابث ، رغم الحوادث والأرزاء ، أفانتهى بك الأمر أن يقتلك
بسعانى ؟ ... لقد سقيت صفوا البستانى وأباه وجده ومن قبلهم
إلى أربعة آلاف جد ، أفكانت عاقبة هذا الاحسان أنه لم يبن
بيته إلا على رفاتك ، ولم يكن أساس منزله إلا قبرك ؟ لا بأس
أيتها الساقية ، فان الانسان مذ كان منكر للمعروف جاحد
للاحسان ...

لا بأس ، فان ملكاً لن يدوم ، ولقد رأيت الترك والروم
واليونان ، فهل رأيت ملكاً يبقى ، أرأيت الدنيا دامت على أحد ؟
أما كانت دولة الترك عظيمة ؟ أما جلّت دولة الرومان ؟ أبقى من
هذا كله شىء ؟ لا ، يا أيتها الساقية إنه لا يبقى إلا الاسلام ، لأنه
من ملك الله الباقى ...

* * *

رحمة لك أيتها الساقية ، وسلام على تلك الأيام الجميلة التى
عشت فيها إلى جنبك ، لا أعرف هم الدنيا ولا نكد الحياة ، لقد
كنت أفرّ اليك من عصا الشيخ ، وعقاب المعلم ، فتؤوينى
وتحمينى ، فلمن أفر اليوم من حياتى التى ضاقت على ، ونفسى التى
برمت بها ؟

لقد ضعتُ كما ضعتِ أيتها الساقية ، وجفت آمالى كما
جففت ، وانتهى بى المطاف أن أكون شيخ كتاب ! ولكن
لا بأس أيتها الساقية . . . فان الدنيا لا تدوم على حال . فرحمة
لك ، وعلى ذكراك السلام !

على الطنطاوى